﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ[1] مَّعْدُودَةٍ[2] لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ[3] أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ[4] بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وساعة تجد ﴿لَئِنْ﴾ فافهم اللام الأولى التى بعد «و» إنما جاءت ؛ لتدل على أن الكلام فيه قسم مؤكد ، وإن كان محذوفاً ، واكتفى باللام عن القسم ، وتقديره: «والله لئن».

والقسم يأتى لتأكيد المقسم عليه بالمقسم به ، وتأكيد المقسم عليه إنما يأتى لأن هناك من يشك فيه .

فأنت لا تُقسم لإنسان تلقاه وتقول له: والله لقد كنت عند فلان بالأمس. .

(١) الأمة: اسم مشترك، يقال على ثمانية أوجه:
١- فالأمة تكون الجماعة، كقوله: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ ..﴿٢٣﴾﴾ [القصص].
٢- والأمة: أتباع الأنبياء عليهم السلام.
٣- والأمة: الرجل الجامع للخير الذى يُقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ..﴿١٢٠﴾﴾ [النحل].
٤- والأمة: الدين والملة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ..﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف].
٥- والأمة: الحين والزمان، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ..﴿٨﴾﴾ [هود].
٦- والأمة: القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه.
٧- والأمة: الرجل المنفرد بدينه وحده ولا يشركه فيه أحد. قال النبى ﷺ: «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده».
٨- والأمة: الأم. يقال: هذه أمة زيد، يعنى: أم زيد.
[راجع تفسير القرطبى (٤/ ٣٣٢٧)، ولسان العرب].

(٢) أمة معدودة: إلى أمد معدود أى: أجل محدد. والأمة فى هذا الموضع: الأجل والحين. وقال تعالى فى سورة يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ..﴿٤٥﴾﴾ [يوسف].

(٣) يحبسه: يمنعه.

(٤) حاق بهم: نزل بهم، وأحاط بهم. وقال تعالى: ﴿.. وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر].
[مختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

إذن: فالقسم يأتي لشك طرأ [1] عند السامع ، وأنت لا تقسم ابتداء.

ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك ، وتأكيداً بأدواته .

والقرآن الكريم يقول هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ..(٨) ﴾ [هود]

فالواو هنا هي واو القسم ، وهنا أيضاً شرط ، والقسم يحتاج لجواب ، والشرط أيضاً يحتاج إلى جواب.

وإذا اجتمع الشرط والقسم فبلاغة الأسلوب تكتفي بجواب واحد ، مثلما نقول: «والله إن فعلت كذا لأفعلن معك كذا».

وهكذا يُغْنى جواب القسم عن جواب الشرط. والمتقدم سواء أكان قسماً أو شرطاً هو الذي يغني جوابه عن الآخر.

مثلما نقول: «والله إن جاء فلان لأكرمته» ، فالقسم هنا متقدم ، وأغنى جوابه عن جواب الشرط. وإن قلت: إن جاءك فلان والله لتكرمه ، فهنا الشرط هو المتقدم.

والاثنان متحدان ، لكن غاية ما هناك أن القسم تأكيد والشرط تأسيس ، فإذا تقدم ذو خبر على الاثنين - على الشرط وعلى القسم - نأتي بجواب الشرط فوراً ، مثلما نقول: «زيد والله إن جاءك أكرمه» ؛ لأن الشرط كما قلنا تأسيس ، والقسم تأكيد ، ويرجح هنا الشرط ، لأن التأسيس أولى من التأكيد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ..(٨) ﴾ [هود]

---

(١) طرأ الشك: حدث ووقع في عقل السامع مما يستدعي من المتكلم أن يقسم على ما يقول ليصدقه سامعه.

والجواب هنا للقسم ، وهو يغنى عن جواب الشرط.

أى: أن العذاب يُؤخَّر .

وقد أوعد الحق - سبحانه - الكافرين بمحمد ﷺ بأن يعذبهم ، وكان العذاب للأمم السابقة هو عذاب استئصال ، منهم من أرسل الله سبحانه عليه عاصفة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أغرقه ، ومنهم من خسف [1] به الأرض.

فكأن مهمة الرسل السابقين أن يبلغوا الدعوة ، ثم تتولى السماء تأديب الكافرين بالرسالات.

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد شاء أن يفضِّل أمة محمد ﷺ على الأمم كلها ، وأن تعذِّب الكافرين فى المعارك.

وحين يتوعدهم الرسول ﷺ بعذاب ، فللعذاب ميلاد ، وقد يُؤخَّر ليرى المحيطون بالكافرين الضلال والفساد ، فإذا ما وقع عذاب الله سبحانه على هؤلاء الكافرين ، فلن يحزن عليهم أحد.

وهكذا أراد الله سبحانه الإمهال والإملاء [2] ليكون لهما معنى واضح فى الحياة ، والإملاء للظالم [3] ؛ لتزداد مظالمه زيادة تجعل الأمة التى يعيش فيها

---

(١) قال عز وجل: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] ، أما الذين عُذِّبوا بالحاصب - وهى الريح العاتية الشديدة البرد الحاملة لحصباء الأرض- فهم قوم عاد.

أما ثمود فقد أخذتهم الصيحة ، وأما من عوقب بالخسف فهو قارون ، وأما من عوقب بالغرق فهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما.

(٢) الإملاء: الإرجاء والإمهال. قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف]. [المعجم الوسيط] بتصرف.

(٣) عن أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ليُملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفلته . ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود] أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) البر والصلة .

تكره ظلمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد.

ونحن نعلم أن النفس البشرية بنت المشهد ، فحين يُقتل واحد وتمر سنوات على قضيته ، ثم يصدر الحكم بإعدامه ، فالناس تنسى لذعة القتل الأول ، وتعطف على القاتل حين يصدر الحكم بإعدامه.

ولذلك أقول دائماً:

إن من دواعي استمرار الجرائم إبطاءات المحاكمة ، تلك الإبطاءات التى تجعل عواطف الناس مع المجرم ؛ لأن مشهد المقتول أولاً قد انتهى من ذاكرتهم.

ولكن لو استحضر الناس - وقت العقوبة - ظرف الجريمة ؛ لَفرِحوا بالحكم على القاتل بالقتل.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - حينما يريد أن يعذب أحداً يقول:

﴿ ..وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ [1] مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وذلك ليتم التعذيب أمام المجتمع الذى شقى بإفسادهم وشقى بمظالمهم ، فمن يُعتدَى على عرضه ، ويرى عذاب المعتدى فهو يُشْفَى.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : لقد توعدتهم بالعذاب. ونحن نبطن العذاب بالإمهال لهم ، ولكنهم جعلوا من ذلك مناط السخرية والاستهزاء والتهكم ، وتساءلوا: أين هو العذاب ؟

ونحن نجد القرآن يقول على ألستهم :

(١) طائفة: جماعة. قيل: ثلاثة. وقيل: أربعة ، عدد شهود الزنا. والمراد بالعذاب فى هذه الآية الكريمة هو حد الزنا لغير المحصن. وتمام الآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]. [تفسير الجلالين] بتصرف.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا [1] قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ١٦﴾ [ص]

والقط: هو جزاء العمل ، وهو مأخوذ من القط أى: القطع.

والعذاب إنما يتناسب مع الجرم ، فإن كانت الجريمة كبيرة فالعذاب كبير ، وإن كانت الجريمة صغيرة فالعذاب يكون محدوداً ، فكان العذاب موافقاً للجريمة.

ومن العجيب أن منهم من قال:

﴿ ..اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾ [الأنفال]

وجاء على ألسنتهم ما أورده القرآن الكريم فى قولهم:

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [2] .. ٩٢﴾ [الإسراء]

ولاشك أن الإنسان لا يتمنى ولا يرجو أن يقع عليه العذاب ، ولكنهم قالوا ذلك تحديا وسخرية واستهزاءً.

وشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يعذب الكافرين المعاصرين لرسول الله ﷺ مثلما عذب الكافرين الذين عاصروا الرسالات السابقة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ .. ٣٣﴾ [الأنفال]

فضلاً عن أن هناك أناساً منهم ستروا إيمانهم ؛ لأنهم لا يملكون القوة

---

(١) قطنا: أى: نصيبنا من العذاب الذى أوعدته. [كلمات القرآن للشيخ حسنين محمد مخلوف]. وقط الشىء وقطَّطه: قطعه. [المعجم الوسيط].

(٢) كسفاً: قطعاً. [مختصر تفسير الطبرى] و[كلمات القرآن].

والكسفة (بكسر الكاف وسكون السين وفتح الفاء): القطعة من الشىء. والجمع: كِسْف، وكِسَف. وقد قرئت كسفاً بفتح السين، وقرئت بتسكينها. [المعجم الوسيط: مادة (ك س ف)].

التى تمكنهم من مجابهة [1] الكافرين ، ولا يملكون القوة ليرحلوا إلى دار الإيمان بالهجرة ، وحتمت عليهم ظروفهم أن يعيشوا مع الكافرين .

وهناك فى سورة الفتح ما يوضح ذلك ، حين قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا [2] أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ [3] فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ [4] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا [5] لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) ﴾ [الفتح]

أى : لو تميَّز الكافرون عن المؤمنين لسلَّط الحق سبحانه العذاب الأليم على الكافرين ، لكن لو دخل المسلمون بجيشهم الذى كان فى الحديبية على مكة ، ودارت هناك معركة ، فهذه المعركة ستصيب كل أهل مكة ، وفيهم المؤمنون المنثورون بين الكافرين ، وهم غير متحيزين فى جهة بحيث يوجه المسلمون الضربة للجانب الكافر .

إذن : فلو ضرب المسلمون المقاتلون ، لضربوا بعضاً من المؤمنين [6] ،

(١) المجابهة : أى : المواجهة والرد على الخصوم . وقد جبهه : أى : صك جبهته ، أو قابله بما يكره ، أو ردَّه عن حاجته . [المعجم الوسيط] بتصرف .

(٢) الهدى : البُدن التى ساقها الرسول ﷺ لتنحر عند الحرم ، وهو من مناسك الحج . ومعكوفاً : محبوساً وممنوعاً عن الوصول إلى مكان النحر وهو الحرم . [تفسير الجلالين وكلمات القرآن] بتصرف .

(٣) تطئوهم : تهلكوهم مع الكفار .

(٤) معرَّة : مكروه ومشقة أو سُبَّة .

(٥) تزيَّلوا : تميزوا من الكفار فى مكة . [كلمات القرآن] للشيخ مخلوف .

(٦) لذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) ﴾ [النساء] .

ومن أسباب نزول هذه الآية أن المقداد بن الأسود قتل أعرابياً قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقال له رسول الله ﷺ : «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه ، فقتلته ، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل» أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٩٤) وعزاه للبزار . وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٦٣٣) للدارقطنى فى الأفراد والطبرانى من حديث ابن عباس .

وهذا ما لا يريده الحق سبحانه وتعالى.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ.. (٨) ﴾ [هود]

والأمة: هى الطائفة أو الجماعة من جنس واحد، مثل أمة الإنس، وأمة الجن، وأمة النمل.. وغير ذلك من خلق الله.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا[1] فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام]

والأمة: طائفة يجمعها نظام واحد وقانون واحد، وأفرادها متساوون فى كل شىء، فتكون كل واحدة من هذه الأمم أمة. وهناك الأمة: الطائفة من الزمن. مثل قول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ[2] بَعْدَ أُمَّةٍ.. (٤٥) ﴾ [يوسف]

أى: أن هذا الذى تذكر بعد فترة من الزمن، وقد تكون الفترة المسماة «أمة»، هى الزمن الذى يتحمل جيلاً من الأجيال.

الأمة - إذن - هى جماعة وطائفة لها جنس يجمعها، ولها تميزات أفرادية، وهى تلتقى فى معنى عام.

---

(١) ما فرطنا: أى: أن الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء أكان برياً أو بحرياً. قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٣١).

(٢) ادكر: أصلها اذتكر. على وزن افتعل، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً، وأدغمت الدالان. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر].

فأمة الإنسان هى حيوان ناطق مفكر ، وهناك قدر عام يجمع كل إنسان ، ولكن هناك تفاوتات فى المواهب.

ولا توجد نفس بشرية واحدة تملك موهبة الهندسة والطب والتجارة والصيدلة والمحاسبة ؛ لأن كل حرفة من تلك الحرف تحتاج إلى دراسة.

ولا يملك إنسان من العمر ما يتيح له التخصص فى كل تلك المجالات ؛ ولذلك يتخصص كل فرد فى مجال ؛ ليخدم غيره فيه ، وغيره يتخصص فى مجال آخر ويخدم الباقين ، وهكذا .

وفى هذا تكافل اجتماعى ، يشعر فيه كل فرد بأنه يحتاج للآخرين ، وأنه لا يستطيع أن يحيا مستقلاً بذاته عن كل الخلق.

ولو عرف واحد كل الحرف التى فى الدنيا ، من طب وهندسة وقضاء ، وسباكة ، ونجارة ، وزراعة ، وغيرها فلن يسأل عن الباقين ؟

لذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تلتحم المجتمعات ضرورة وقسراً ، لا تفضُّلاً من أحد على أحد.

والذى يكنس الشارع أو يعمل فى تنظيف الصرف الصحى لا يفعل ذلك تفضُّلاً ، بل يفعل ذلك احتياجاً ؛ لأنه يحتاج إلى العمل والرزق ؛ لأن جسمه يحتاج إلى الطعام ، وإلى الستر بالملابس ، وأولاده يطلبون الطعام والمأوى والملبس ، ولولا ذلك لما عمل فى تلك المهنة.

وإذا أخلص فى عمله فالله سبحانه يحببه فيها ، وإن ارتقت أحواله ، يظل فى هذا العمل ؛ لأنه عشق إتقان مهنته.

ولقد رأيت رجلاً كان يعمل فى هذه المهنة ، ويحمل الأقذار على كتفه ، وحين وسَّع الله عليه ، اشترى عربة يجرها حمار ليحمل فيها ما ينزحه من تلك المجارى.

وحين وسَّع الله عليه أكثر ؛ اشترى سيارة فيها ماكينة شفط للقاذورات ، وصار يجلس على الكرسى ، ويدير «موتور» نزح المجارى لداخل خزان السيارة المخصص لذلك.

إذن : فارتباطات المجتمع لا بد أن تنشأ عن حاجة ، لا عن تفضُّل ؛ لأن التفضل ليس فيه إلزام بالعمل ، لكن الحاجة هى التى فيها إلزام بالعمل ؛ لتسير حركة الحياة .

ومن يعشق عمله على أى وضع كان ، يوفقه الله تعالى فيه أكثر ؛ لأنه احترم قدر الله تعالى فى نفسه ، ولم يستنكف [1] ، ويعطيه الله سبحانه كل الخير من هذا العمل ، بقدر حبه للعمل وإخلاصه فيه .

وإن نظرت إلى العظماء فى كل مهنة مهما صغرت ، فستجد أن تاريخهم بدأ بقبولهم لقدر الله سبحانه وتعالى فيهم.

ونحن نعلم أن قيمة كل امرىء فيما يحسنه ؛ ولذلك تجد الأمة مكونة من مواهب متكاملة لا متكررة ، حتى يحتاج كل إنسان إلى عمل غيره.

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [2] .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

(١) الاستنكاف : الاستكبار والامتناع وأن تأخذه الأنفة من فعل الشىء . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) ﴾ [النساء] .

(٢) سخرياً : مسخَّراً فى العمل ، مستخدماً فيه . [كلمات القرآن] أى : يستخدم بعضهم بعضاً فى الأعمال المختلفة حسب إجادة كل منهم لها . وقد جعل الله تعالى ذلك سبباً للمعاش فى الدنيا ؛ ليترابط الناس ويتآلفوا ، ولا ينعزل كل منهم بعيداً عن الآخرين فتفسد الحياة .

لأن أحداً لا يسخِّر الآخر لعمل إلا إذا كان المسخَّر فى حاجة إلى هذا العمل .

ولذلك تجد من يطرق بابك ويسأل: ألا تحتاج إلى سائق ؟ ألا تحتاج إلى خادم ؟

وصاحب الحاجة هو الذى يعرض نفسه ؛ لعله يجد العمل الذى يتقنه .

ولذلك يجب ألا يتصور أهل أى إنسان أنه حين يخدم فى أى حرفة من الحرف أنه يخدم المخدوم ، لا . . إنه يخدم حاجة نفسه .

وهكذا تترابط الأمة ارتباط حاجات ، لا ارتباط تفضل .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً [1] . . (١٢٠) ﴾ [النحل]

لأن هناك مواهب متعددة قد اجتمعت فيه ، وهى مواهب لا تجتمع إلا فى أمة من الناس .

وكلمة « أمة » تطلق على الزمن ، وتطلق على الجماعة من كل جنس ، وتطلق على الرجل الجامع لكل خصال الخير .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ [2] . . (٨) ﴾ [هود]

وعادة ما تأتى كلمة ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ لتفيد القلة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

---

(١) سئل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ . . (١٢٠) ﴾ [النحل] قال : الأمة معلم الخير ، والقانت : المطيع لله . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٩٠) .

(٢) أمة معدودة : طائفة من الأيام قليلة . [كلمات القرآن] .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ⁽٢٠⁾ ﴾[1] [يوسف]

وما دام الثمن بَخْساً فلا بد أن تكون الدراهم معدودة.

والسبب فى فهمنا لكلمة ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ أنها تفيد القلة ، هو أننا لا نُقبل على عَدِّ شيء إلا مظنة أننا قادرون على عَدِّه ؛ لأنه قليل ، لكن مالا نُقبل على عدِّه فهو الكثير.

ومثال ذلك: أن أحداً لم يعد الرمل ، أو النجوم.

ولذلك جاء قول الحق سبحانه:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ⁽٣٤⁾ ﴾ [إبراهيم]

و«إن» - كما نعلم - تأتى للشك ، ونعم الله سبحانه ليست مظنة الحصر.

ورغم أن البشرية قد تقدمت فى علوم الإحصاء فهل تفرَّغ أحد ليُحصى نعم الله ؟

طبعاً لا .. وبطبيعة الحال يمكن إحصاء السكان والعاملين فى أى مجال أو تخصص.

وقديماً[2] كان القائمون على فتح صناديق النذور ليحسبوا ما فيها ، فيضعوا الورق من فئة المائة جنيه معاً ، والورق من فئة العشرة جنيهات

---

(١) شروه: باعوه. قيل: هم السيارة (القافلة) تبايعوا يوسف - عليه السلام - بثمن بخس: قليل. وقيل: حرام؛ لأنه كان حراماً عليهم لا يحل لهم أكل ثمنه. وكانوا فيه من الزاهدين: قيل: هم السيارة كانوا فيه زاهدين، لا يعلمون كرامته على الله تعالى ونبوته. [مختصر تفسير الطبرى].

وذكر الجلالان فى تفسيرهما أن «بخس» أى: ناقص. وأن الدراهم المعدودة عشرون أو اثنان وعشرون درهماً. وأن إخوته هم الذين كانوا فيه من الزاهدين، فجاء به السيارة الذين اشتروه إلى مصر ، فباعه الذى اشتراه بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين. [تفسير الجلالين] بتصرف.

(٢) ذكر فضيلة الإمام هذا العمل ؛ لأنه عرض عليه يوم أنْ كان وكيلاً للدعوة بوزارة الأوقاف.

معاً ، وكذلك بقية الفئات من الأوراق المالية ، إلى أن يصلوا إلى القروش ، فيقوموا بوزن كيلو جرام منها ، ويحسبوا كم قرشاً فى الكيلو جرام ، ويزنوا بعد ذلك بقية القروش ؛ ليحسبوا المجموع على حساب عدد القروش التى حصروها فى الكيلو جرام الأول.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

كأنهم يتساءلون سخرية واستهزاء: لماذا يتأخر العذاب الذى توعَّدهم به رسول الله ﷺ ؛ لأن الإنسان لا يتشوق إلى ما يؤلمه ، ولا يقال مثل هذا الكلام إلا على سبيل التهكم.

ويأتى الرد عليهم بأداة التنبيه ، وهى «ألا» أى: تَنبَّهوا إلى هذا الرد.

ويقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا[1] عَنْهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

وهذا تأكيد أن العذاب سيأتى ، ولكن العباد دائماً يعجلون.

والله سبحانه لا يعجل بعجلة العباد ؛ حتى تبلغ الأمور ما أراد ، وكل أمر له وقت وله ميلاد ، وسيأتيهم ما كانوا يستعجلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ .. وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود]

وقد جاء تأكيد وصول العذاب إليهم بأشياء: أولها: «ألا» وهى أداة تنبيه ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ، وهذا خبر بأن العذاب آت لا محالة ؛ لأن الذى يخبر به هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) ليس مصروفاً: ليس مدفوعاً. [تفسير الجلالين].

وأيضاً فهذا العذاب : ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ..﴿٨﴾﴾ [هود]

أى: أنه عذاب مستمر.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿..وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود]

يعنى: أنه حل بهم ونزل عليهم ، ووقع لهم العذاب الذى استهزأوا به من قبل.

ونحن نعلم أن كلمة (حاق) فعل ماض ، والكلام على أمر مستعجل ، ويُعبَّر عن الأمر المستعجل بالمضارع ؛ لأنّ الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال ، فكيف يستعجلون أمراً ، ويأتى التعبير عنه بالفعل الماضى[1]؟

ولكن القائل هنا هو الله الحق سبحانه وتعالى ، والكلام مأخوذ بقانون المتكلم ، وكل فعل يُنسَب إلى قوة فاعله ، والله سبحانه هو قوة القوى.

وقال الحق سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ..﴿١﴾﴾ [النحل]

وكلمة «أتى» في عرفنا اللغوى فعل ماض ، أى: أن الكلام جاء من المتكلم بعد وقوع النسبة خارجاً ، مثلما نقول: «نجح محمد» فهذا يعنى أن النجاح قد حدث بالفعل.

(١) هنا التعبير بالماضى عن المضارع يصدر من مالك الزمن والمكان والحركة ؛ لتحقق الوقوع ، وقد يُعبَّر بالمضارع عن الماضى لتخفيف الحدث ، كما فى قوله تعالى عن مقالة إبراهيم لابنه إسماعيل : ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ..﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات] ، ومثل الأول قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ [النحل]

وحين يقول الله سبحانه: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نفهم أن ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نسبة كلامية سبقتها نسبة واقعية.

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدل على أن الأمر لم يقع، ولكن المتكلم هنا هو الله سبحانه وتعالى.

والمعنى أن الأمر واقع لا محالة؛ ذلك لأن كل فعل إنما ينسب لقوة الفاعل.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - أنك قد ترغب فى أن تنقل حقيبة ضخمة وثقيلة، فيقول ابنك الشاب: دعنى أحملها لك، وهو يقول ذلك لأنه قادر على أن يحملها فى زمن يناسب قوته.

وإن جاءك ابنك الصغير وقال: سأحملها أنا. فهو لن يحمل الحقيبة إلا فى مقدار زمن يناسب قوته، وهى قوة ضعيفة.

إذن: ففى المجال البشرى أنت تحكم على الماضى، وقد يكون الحكم صادقاً أو كاذباً، ولكنك بالنسبة لأمر مستقبل، لا تستطيع أن تحكم عليه؛ لأنك لا تملك من المستقبل شيئاً.

أما إذا كان قائل الكلام قادراً على إنفاذ ما يقوله الآن فى المستقبل، ولا عائق يعوقه، فاعلم أن الأمر قادم لا محالة.

وهنا نجد الإخبار من الله سبحانه وتعالى، ولا شىء فى الكون يتأبّى[1] على الله سبحانه.

ومادام الحق سبحانه قد قال إنه أمرٌ قد أتى، فهو آت لا محالة.

---

(١) أبى الشىء: يأباه من باب فرح - إباءً وإباءةً: وأبى الشىء يأبيه - من باب ضرب - امتنع عنه وكرهه ولم يرضه. قال الحق سبحانه: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ..(٣٤)﴾ [البقرة] وقوله: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ..(٧٢)﴾ [الأحزاب] وقوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ ..(٣٢)﴾ [التوبة] ويتأبى يمتنع. القاموس القويم بتصرف.

ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَحَاقَ بِهِم .. ⑧ ﴾ [هود]

مع أن السياق فى العرف البشرى أن يقال: وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون ؛ لأنهم كانوا يستعجلون العذاب.

وجاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَحَاقَ﴾ لأن الأمر بالنسبة له سبحانه لن يحول بينه وبين وقوعه أى عائق.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ (١) كَفُورٌ ⑨ ﴾

وهنا أيضاً تبدأ الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ﴾ وهذا يعنى أن اللام قد سبقت لتدل على القسم ، وكأنه يقول: لئن أذقنا الإنسان رحمة ، ثم نزعناها منه لوقع فى اليأس.

وهنا أيضاً قسم وشرط ، والقسم متقدم ، فالجواب يكون للقسم.

وكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ توضح أن الإذاقة محلها الأول الفم ، ومعناها: تناول الشيء لإدراك طعمه: حلو أو مر ، لاذع أو غير لاذع ، قلوى أم حامض.

ومن العجيب فى دقة التكوين الإنسانى أن كل منطقة فى اللسان لها طعم تنفعل له ، فطرف اللسان ينفعل لطعم معين ، ووسط اللسان ينفعل لطعم آخر ، وجوانب اللسان تنفعل لطعم ثالث ، وهكذا.

---

(١) يئوس: صيغة مبالغة من اليأس. أى: يظل يائساً قانطاً من رحمة الله وخيره. وكفور: صيغة مبالغة من الكفر أى: قليل الشكر على النعم ، وكفران النعم هو جَحْدها وعدم شكر الله عليها. [مختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

كل ذلك فى عضو واحد شاء له الحق سبحانه هذه الدقة فى التركيب.

وكل «حلمة» من مكونات اللسان لها شيء تحس به ؛ ولذلك نجد الإنسان يذوق الطعام ، فيقول: إن هذا الطعام ينقصه الملح ، أو يذوق الحلوى - مثل الكنافة - فيقول: إن السكر المحلاة به مضبوط.

وكذلك حرارة الجسم ، يقيس الإنسان حرارته ، فإن وجدها سبعة وثلاثين درجة ونصف الدرجة ؛ فيقول: إنها حرارة طبيعية. وإن نقصت حرارة الإنسان عن ذلك يقال: إنه مصاب بالهبوط. وإن ارتفعت يقال: مصاب بالحمى.

وهذا قياس للحرارة بالجملة لجسم الإنسان ، ولها المنافذ الخاصة بها. ولكن كل عضو فى الجسم تلزمه درجة حرارة خاصة به ليؤدى عمله .

فالكبد إن قلَّت درجة حرارته عن أربعين درجة لا يؤدى مهمته. وجسم الإنسان فيه جوارح متعددة ؛ وحرارة العين مثلاً تسع درجات ؛ لأنها لو زادت حرارتها عن ذلك لانفجرت العين ، وحرارة الأذن ثمانى درجات.

وأنت لا تستطيع أن تأتى بأشياء مختلفة الحرارة وتضعها مع بعضها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء ذلك بالنسبة للجسم الإنسانى.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ . . (٩) ﴾ [هود]

والذوق هو للإدراك [1] ، لا للأكل ، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع: «تفضَّل ذُقْ» فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعمها.

---

(١) الإدراك يكون بالحواس ، وبالإدراك يحصل الانفعال الوجدانى ، وعن طريق الوجدان يكون الاختيار ، فالذوق هو تناول الشيء لإدراك طعمه فيحصل الاختيار .

فالذوق - إذن - هو تناول الشيء لإدراك طعمه.

والنعمة [1] حين يشاء الحق سبحانه وتعالى أن تصيب الإنسان ، ثم تُنزَع منه ، هنا يصاب الإنسان بالقلق أو الحزن أو الهلع ، أو اليأس.

والنعمة مهما قلَّت فالإنسان يستطيبها ،وإن نُزعت منه فهو يئوس كفور.

واليأس :هو قطع الأمل من حدوث شيء ، ولأن الإنسان لا يملك الفعل ، ولو كان يقدر عليه لما يئس.

والمؤمن لا ييأس أبداً ؛ لأن الله سبحانه هو القائل :

﴿ .. إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ [2] اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف]

اليأس - إذن - هو أن تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحققه.

والذى ييأس هو الذى ليس له إله يركن إليه ؛ لأن الله تعالى هو الركن الرشيد الشديد ، والمؤمن إن فقد شيئاً يقول: «إن الله سيُعوِّضنى خيراً منه».

أما الذى لا إيمان له بإله فهو يقول: «إن هذه الصدفة قد لا تتكرر مرة أخرى».

---

(١) نَعِم يَنْعَم فهو ناعم ، من باب فرح ، ويأتى من باب كرُم ، نعمةً ونَعْمة بفتح النون وكسرها . ونعيماً كان فى رغد من العيش ، وفى تمتع به . والنعيم ما يتلذذ به من مأكل وملبس وصحة ، يقول الحق : ﴿ .. فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) ﴾ [يونس] أى : التى فيها كل نعيم . والنَّعمة بالفتح : النعيم ، وتطلق على ما يتمتع به الإنسان من وسائل الرفاهية . يقول الحق : ﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ ..(١١) ﴾ [المزمل] فى الدنيا ، والنعمة بكسر النون . مصدر بمعنى النعيم . وتطلق على المتاع والخير الذى يتمتع به الإنسان يقول الحق : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (١٨) ﴾ [النحل] القاموس القويم . بتصرف .

(٢) روح الله : رحمته وفرجه ، ولطفه بالعباد بإزالة كربهم . [كلمات القرآن] بتصرف . واليأس هو انقطاع الأمل ، ولا ينقطع أمل الإنسان فى الله سبحانه وتعالى إلا إذا كان كافراً.

فالإنسان الذى يُسْرَق منه جنيه قد يحزن ، ولكن إذا ما كان عنده فى المنزل عشرة جنيهات فهو يحزن قليلاً على الجنيه المفقود .

والإنسان لا ييأس إلا عند عدم يقينه بمصدر يرد عليه ما يريده ، ولكن حين يؤمن بمصدر يرد عليه ما يريده فلا تجده يائساً قانطاً .

والمؤمن يعلم أن النعمة لها واهب ، إن جاءت شكر الله عليها ، وإن سُلبت منه ، فهو يعلم أن الحق سبحانه قد سلبها لحكمة [1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ..(٩) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الإنسان مقصود به كل أبناء آدم - عليه السلام - وهم كثيرون ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر .

وهنا تأتى كلمة «الإنسان» على إطلاقها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يستثنى المؤمن فى موضع آخر حين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ [2] (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٣) ﴾ [العصر]

و«الإنسان» مفرد يدل على الإنسان فى كل مدلولاته ، ويستثنى من نوع الإنسان من آمن به .

فإن رأيت كلمة إنسان فاعلم أن المراد بالإنسان أفراد الإنسان كلهم .

(١) عن صهيب الرومى قال قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩).

(٢) الخسر : الهلاك والنقصان .

والإنسان لو عزل نفسه عن منهج الله تعالى فهو فى خسران إلا إذا اتبع منهج الله ، فالمنهج يحميه من الزلل ، وتسير غرائزه إلى ما أراد الحق سبحانه لها .

فقد خلق الحق سبحانه الغرائز لمهام أساسية ، فغريزة الجوع تجعل الإنسان يطلب الطعام ، والعطش أراده الله سبحانه وتعالى لينتبه الإنسان إلى طلب الارتواء بالماء .

وغريزة بقاء النوع تدفع الإنسان للزواج ، وغريزة حب الاستطلاع هى التى تدفع الإنسان إلى كشف المخترعات .

والحق سبحانه وتعالى هو القائل عن السادين عن استكشاف آيات الله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ [1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

والباحث العلمى التجريبى المعملى ينظر فى ظواهر الكون ليستطلع أسرار الكون .

وهناك فارق بين حب الاستطلاع لاكتشاف أسرار الكون ، وحب الاستطلاع لأخبار الناس .

إن حب الاستطلاع عموماً هو مدار التقاءات الكون ، ولكن الدين والخلق هو الذى يوجه حب الاستطلاع .

---

(١) وكأين : بمعنى «وكم» . وآية هنا : عبرة وحجة ، كالشمس والقمر وغيرهما من آيات الله سبحانه وتعالى ، يرونها ويعاينونها ولا يتفكرون فيها . [مختصر تفسير الطبرى] .
وقد أخرج أبو الشيخ الأصبهانى عن الضحاك فى تفسير معنى الآية : يعنى شمسها وقمرها ونجومها وسحابها . وفى الأرض ، ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٥٩٣) .

إذن: فالقرائن لها مهمة يجب ألاّ تنفلت إلى غيرها ، والدين قد جاء ليعلى من الغرائز ويوجهها إلى مهامها.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا (١) .. (١٢)﴾ [الحجرات]

أى: لا تتبعوا العورات (٢)؛ لأننا لو أبحنا لواحد أن يتتبع عورات الناس؛ لأبحنا لكل الآخرين أن يتتبعوا عوراته.

وحين منع الحق - سبحانه وتعالى - الإنسان من تتبُّع عورات غيره ، فهو قد حماه من تتبع عوراته .

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ..(٩)﴾ [هود]

وكلمة «النزع» تفيد أن الإنسان حريص على ما وهبه له الله تعالى من خير وصحة وعافية ويُسْر . وحين تؤخذ منه النعمة فهو يقاوم .

والنزع يعنى: استمساك المنزوع منه بالشيء المنزوع.

ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة آل عمران:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

---

(١) لا تجسسوا: أى: لا تتجسسوا، حذف منه إحدى التاءين - لغرض بلاغى - والمراد: عدم تتبع عورات الناس ومعايبهم بالبحث عنها. [تفسير الجلالين] بتصرف.

(٢) العورة : ما يستره الإنسان من جسمه حياءً . والعورة : الخلل والعيب . والبيت عورة : أى فيه خلل وقوله : ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ .. (١٣)﴾ [الأحزاب] أى : فيها خلل يخشى أن يدخل الأعداء منه ، وذلك ليرجعوا عن الجهاد . القاموس القويم باختصار .

كأن الموجود فى الملك يتشبث به جداً.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا (١) مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ⑨ ﴾[هود]

وفى نفس السورة يأتى الاستثناء ، فيقول الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑪ ﴾ [هود]

وسنأتى لها بالخواطر من بعد ذلك.

ويقول الحق - سبحانه وتعالى - فى المقابل لمن نُزِعَتْ منه الرحمة واليئوس الكفور:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ (٢) بَعْدَ ضَرَّاءَ (٣) مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ (٤) عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ (٥) فَخُورٌ (٦) ⑩ ﴾

وهنا نجد الضراء هى الموجودة ، والنعماء هى التى تطرأ ، عكس الحالة الأولى ، حيث كانت الرحمة - من خير ويسر - هى الموجودة.

---

(١) المقصود الرحمة التى أنعم الله بها عليه.

(٢) النعماء: أثر النعمة على بدن وحياة الإنسان، فتكون ملازمة له.

(٣) الضراء: أثر الفقر والشدة. وقال تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ..(٤٢) ﴾ [الأنعام].
ومسته: أصابته. [تفسير الجلالين ومختصر تفسير الطبرى] بتصرف.

(٤) السيئات: المصائب والشدائد والعسر.

(٥) فرح: صيغة مبالغة من الفرح، وهو البطر بالنعمة [كلمات القرآن].

(٦) فخور: صيغة مبالغة من الفخر، أى: كثير الفخر بما نال من الناس، وفخور على الناس بما أوتى، وغير شاكر لله تعالى على نعمه. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين] بتصرف.

فالنزع في الأولى طرأ على رحمة موجودة ، والنعماء طرأت على ضرَّاء موجودة .

وهناك فرق بين نعماء ونعمة ، وضراء وضر ؛ فالضر هو الشيء الذي يؤلم النفس ، والنعمة هي الشيء الذي تتنعم به النفس.

لكن التنعُّم والألم قد يكونان في النفس ، ولا ينضح أي منهما على الإنسان ، فإن نضح على الإنسان أثر النعمة يقال فيها «نعماء» ، وإن نضح عليه أثر من الضر يقال : «ضراء».

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي .. (١٠) ﴾ [هود]

ولا يفطن من يقول ذلك إلى المُذْهِب الذي أذهبَ السيئات ؛ لأن السيئة لا تذهب وحدها .

ولو كان القائل مؤمناً لقال : رفع الله عني السيئات .

لكنه غير مؤمن ؛ ولذلك يغرق في فرح كاذب وفخر لا أساس له .

ويصفه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ .. إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾ [هود]

وكأن الفرح بالنعمة أذهله [1] عن المنعم ، وعمن نزع منه السيئة .

وأما الفخر ، فنحن نعلم أن الفخر هو الاعتداد بالمناقب [2] ، وقد تجد

---

(١) الذهول عن الشيء : أن يشغلك عنه أمر آخر . ذهل عن الشيء : تركه على عمد أو غفل عنه أو نسيه لشغل . [اللسان ، مادة : ذهل].

(٢) مناقب : جمع منقبة ، وهي كرم الفعل . وكريم المناقب : حَسَن الخلق كريم الفعال . [اللسان] بتصرف .

إنساناً يتفاخر على إنسان آخر بأن يذكر له مناقب وأمجاداً لا يملكها الآخر.

ونحن نعلم أن التميز لفرد ما يوجد في المجتمع، ولكن أدب الإيمان يفرض ألا يفخر الإنسان بالتميز.

ولذلك نجد النبي ﷺ يقول: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»[١].

وفي إحدى المعارك نجده ﷺ يقول:

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب[٢]».

وقد اضطر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك؛ لأن الكافرين في تلك المعركة ظنوا أنهم حاصروه هو ومن معه وأنه سوف يهرب، لكنه ﷺ بشجاعته أعلن:

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»[٣] وكان أقرب المسلمين إلى مكان الأعداء الكافرين وفي مواجهتهم.

ونحن نجد المتصارعين أو المتنافسين، واحدهم يدخل على الآخر بصوت ضخم ليهز ثقة الطرف الآخر بنفسه.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٤٧٦) من حديث أبي هريرة. وعند الحاكم في مستدركه (٢/ ٦٠٤) وصححه من حديث جابر بن عبد الله بلفظ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» دون ذكر يوم القيامة.

(٢) نسب رسول الله ﷺ نفسه إلى جده عبد المطلب، لا إلى أبيه عبد الله، فقد كان عبد المطلب مشهوراً شهرة ظاهرة شائعة، وكان سيد أهل مكة، وكان مشتهراً عندهم أن عبد المطلب بُشِّر بالنبي ﷺ، وأنه سيظهر، وسيكون شأنه عظيماً، فأراد النبي ﷺ تذكيرهم بذلك وتنبيههم بأنه ﷺ لا بد من ظهوره على الأعداء، وأن العاقبة له لتقوى نفوسهم. نقله النووي في شرحه لصحيح مسلم (١٢/ ٣٦٠).

(٣) وذلك أن رجلاً سأل البراء بن عازب: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، وكانت هوازن يومئذ رماة، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب.

والفخور إنسان غائب بحجاب الغفلة عن واهب المناقب التى يتفاخر بها ، ولو كان مستحضراً لجلال الواهب لتضاءل أمامه ، ولو اتجهت بصيرة المتكبر والفخور إلى الحق سبحانه وتعالى لتضاءل أمامه ، ولردَّ كل شيء إلى الواهب .

ومثال ذلك فى القرآن الكريم هو قول الحق سبحانه على لسان صاحب موسى عليهما السلام :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ [1] عَنْ أَمْرِى .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف]

وهذا سلوك العابد المتواضع .

أما حال الفخورين اللاهين عن الحق سبحانه وتعالى ، فقد صوره القرآن فى قول قارون :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ [2] عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

وكان مصيره هو القول الحق :

﴿ فَخَسَفْنَا [3] بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص]

ولذلك قلنا : إنك تحصِّن كل نعمة عندك بقولك عند رؤيتها : « بسم الله ما شاء الله » ؛ لتتذكر أن هذه النعمة لم تأت بجهدك فقط ، ولكنها جاءت لك أولاً بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وذلك لتبقى عين الواهب حارسة للنعمة التى عندك .

---

(١) المقصود ما فعله الخضر عليه السلام من : خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار الذى كان سينهار .

(٢) أوتيته : أى : اكتسبته . يقصد المال الذى رزقه الله إياه ، ولكن قارون ادَّعى أن علمه هو الذى جلب له المال ، فكفر بنعمة الله عليه ، فاستحق عقاب الله .

(٣) الخسف : خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتغور يقول الحق : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] وخسف القمر : نقص نوره ، وخسوف الشمس يقع فى أواخر الشهر العربى فى أيام المحاق ، وسببه توسط القمر بين الأرض والشمس ، فيحجب القمر الشمس ، فإن كان الحجب كلياً كان خسوفاً ، وإن كان جزئياً كان كسوفاً . وجاء فى اللسان الخسف : سؤوخ الأرض بما عليها أى : ابتلاعها ما فوقها . وخسف الله به الأرض أى : أغابه فيها . القاموس القويم باختصار .